وهب نفسه فداء للحق!

نحكي هنا نبأ هذه الأمة المؤمنة، التي تحدت إرادة الطاغية وأذلت كبرياءه، ولم يكن قائدها زعيمًا سياسيًا، أو ناشطًا حزبيًا، أو طالبًا لملك أو طامعًا في سلطان.! وإنما كان داعية يدعو لدين الله، ويُرشد الناس إلى نوره وهديه.. كافرًا بدين الحاكم الغشوم، الذي لم يجد غير القتل ليسكت به صوت الحق، ويطفئ به بوارق الإيمان.. لتظل هذه القصة، ويظل رائدها، مثلا وقدوة لطلاب الحرية وعشاق الحقيقة يصرخون بندائها.. في وجه الظلمة المستبدين.!

إنهم أصحاب الأخدود الذين قص الله تعالى نبأهم في كتابة الكريم فقال تعالى:(قُتِلَ أَصْحَابُ الْأُخْدُودِ * النَّارِ ذَاتِ الْوَقُودِ *إِذْ هُمْ عَلَيْهَا قُعُودٌ * وَهُمْ عَلَى مَا يَفْعَلُونَ بِالْمُؤْمِنِينَ شُهُودٌ * وَمَا نَقَمُوا مِنْهُمْ إِلَّا أَن يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ * الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ *)[1]

فكيف كان النبأ؟ وكيف بدأت الأحداث؟

ها هي السنة المطهرة تحكي لنا نبأ هذه الملحمة العظيمة، والسبب المباشر الذي تفجرت منه بواعث الإيمان في القلوب، على يد الغلام الداعية.!

روى الإمام أحمد ومسلم قال رسول الله ﷺ: (كان ملك فيمن كان قبلكم، وكان له ساحر، فلما كبر قال للملك: إني قد كبرت، فابعث إلي غلامًا أعلمه السحر، فبعث إليه غلامًا يعلمه، فكان في طريقه إذا سلك راهب فقعد إليه وسمع كلامه فأعجبه، فكان إذا أتى الساحر مر بالراهب وقعد

---

١ – سورة البروج :٤-٩

إليه، فإذا أتى الساحر ضربه فشكا ذلك إلى الراهب، فقال: إذا خشيت الساحر، فقل: حبسني أهلي، وإذا خشيت أهلك فقل: حبسني الساحر.

فبينما هو كذلك إذ أتى على دابة عظيمة قد حبست الناس، فقال: اليوم أعلم الساحر أفضل أم الراهب أفضل؟ فأخذ حجرًا، فقال: اللهم إن كان أمر الراهب أحب إليك من أمر الساحر فاقتل هذه الدابة؛ حتى يمضي الناس، فرماها فقتلها، ومضى الناس فأتى الراهب فأخبره، فقال له الراهب: أي بني أنت اليوم أفضل مني؛ قد بلغ من أمرك ما أرى، و إنك ستبتلى، فإن ابتليت فلا تدل علي، وكان الغلام يبرئ الأكمه والأبرص ويُداوي الناس من سائر الأدواء، فسمع جليس للملك - كان قد عمي - فأتاه بهدايا كثيرة، فقال: ما ههنا لك أجمع إن أنت شفيتني، فقال: إني لا أشفي أحدًا! إنما يشفي الله، فإن أنت آمنت بالله، دعوت الله فشفاك؟ فآمن بالله فشفاه الله، فأتى الملك فجلس إليه كما كان يجلس، فقال له الملك: من رد عليك بصرك؟ قال: ربي، قال: ولك رب غيري؟

قال: ربي وربك الله! فأخذه فلم يزل يعذبه حتى دل على الغلام، فجئ بالغلام، فقال له الملك: أي بني قد بلغ من سحرك ما تبرئ الأكمه والأبرص وتفعل وتفعل؟! فقال: إني لا أشفي أحدًا، إنما يشفي الله، فأخذه فلم يزل يعذبه، حتى دل على الراهب، فجئ بالراهب فقيل له: ارجع عن دينك، فأبى. فدعا بالمئشار فوضع المئشار على مفرق رأسه فشقه حتى وقع شقاه، ثم جيء بجليس الملك فقيل له: ارجع عن دينك، فأبى فوضع المئشار في مفرق رأسه فشقه به حتى وقع شقاه، ثم جيء بالغلام فقيل له: ارجع عن دينك، فأبى فدفعه إلى نفر من أصحابه، فقال: اذهبوا به إلى جبل كذا وكذا، فاصعدوا به الجبل فإذا بلغتم ذروته؛ فإن رجع عن دينه وإلا فاطرحوه. فذهبوا به فصعدوا به الجبل، فقال: اللهم! اكفنيهم بما شئت. فرجف بهم الجبل؛

فسقطوا. وجاء يمشي إلى الملك فقال له الملك: ما فعل أصحابك؟ قال: كفانيهم الله! فدفعه إلى نفر من أصحابه، فقال: اذهبوا به فاحملوه في قرقور، فتوسطوا به البحر؛ فإن رجع عن دينه وإلا فاقذفوه، فذهبوا به فقال: اللهم! اكفنيهم بما شئت، فانكفأت بهم السفينة فغرقوا وجاء يمشي إلى الملك، فقال له الملك: ما فعل أصحابك؟ قال: كفانيهم الله! فقال للملك: إنك لست بقاتلي حتى تفعل ما آمرك به، قال: وما هو؟

قال: تجمع الناس في صعيد واحد، وتصلبني على جذع، ثم خذ سهمًا من كنانتي ثم ضع السهم في كبد القوس، ثم قل: باسم الله رب الغلام، ثم ارمني؛ فإنك إذا فعلت ذلك قتلتني. فجمع الناس في صعيد واحد، وصلبه على جذع، ثم أخذ سهما من كنانته ثم وضع السهم في كبد القوس، ثم قال: باسم الله رب الغلام، ثم رماه فوقع السهم في صدغه فوضع يده في صدغه في موضع السهم فمات. فقال الناس: آمنا برب الغلام، آمنا برب الغلام، آمنا برب الغلام.

فأتى الملك فقيل له: أرأيت ما كنت تحذر؟ قد والله نزل بك حذرك؛ قد آمن الناس، فأمر بالأخدود في أفواه السكك فخدت، وأضرم النيران وقال: من لم يرجع عن دينه فأحموه فيها، أو قيل له: اقتحم، ففعلوا حتى جاءت امرأة ومعها صبي لها فتقاعست أن تقع فيها، فقال لها الغلام: يا أمه! اصبري؛ فإنك على الحق)

لقد حمل الغلام على عاتقه عبء الدعوة ومسؤولية تبليغها إلى الناس وهدايتهم إلى الله تعالى، واستطاع أن يقود المجتمع كله إلى غايته ومقصده، وأن يزلزل عرش الملك الطاغية، ويهدم صلفه وغروره، بما كان يملك من عناصر الإيمان والتوكل والشجاعة والجرأة والمضاء، فلم يعرف الخوف إلى قلبه طريقًا أمام الوعيد والتهديد، ولم يصرعه الجُبن فيخلي الساحة

للباطل، يعلو فيها على الحق، ويُعربد في الدنيا كيفما شاء، لقد قاوم إلى آخر نفس في حياته مستعينًا مستقويًا بربه القوي الغالب، الذي أيده ونصره على الطاغية، فكانت هذه الصلابة الأخاذة، وكان هذا التحدي المذهل.!

لقد ضحى الغلام الداعية بنفسه وجاد بها من أجل الناس، ومن أجل هدايتهم وسعادتهم وحريتهم، وهي نفس الروح التي كان زعماء أمتنا وعلمائها الأبرار يتحركون بها ويناضلون بعزمها، حينما كانوا يجودون براحتهم وأمنهم وحياتهم من أجل الناس.. لأن ذلك العناء هو ضريبة القيادة الحقيقة، التي لا تمنحها الادعاءات والطنطنات والأصوات العالية والمظاهر الكاذبة، وإنما تمنحها مواقف الحسم ولحظات الجد والإقدام.. لقد كانوا يرمون بأنفسهم في عرين الأسود العاتية، غير هيابين حِدة أنيابهم أو رعد زئيرهم.! لقد انتصر الفتى الداعية الذي قاد الأمة إلى نور الحق، وآمن الناس بدعوته حينما رأوا صدقه وحسن بلاءه، ونزاله لأرباب الباطل، وتحديه لوحشية السلطان.

لقد سجل القرآن العظيم هذه المحنة الرهيبة، محنة أصحاب الأخدود، وسجلت السنة الشريفة، صورة القيادة المؤمنة الفائية الصادقة، التي قادت فكر الأمة وردتها لمعالم الفطرة، وبصرتها بطريق الحق والهداية، لتكون أعظم مثال يحتذيه علماء الإسلام ودعاته الصادقون في نصرة الحق، ونزال الطغاة المتعالين.. لقد رسمت لهم هذه الصورة كيف يكونون حينما يعلو صوت الباطل على صوت الحق؟ فيتحولون أسودًا ضارية، وجبالاً شامخة، أمام كل جبار يفسد في الأرض، ويتعالى على الخلق، ولا يرى إلا رأيه، ولا يؤمن إلا بذاته؟! بل يتحولون إلى ثورة على الظلم، ومطرقة تهوي على رؤوس الطغاة.